

البحث

٢

أثر الحركة الصليبية
على الكشوف الجغرافية

إعداد

د / نادية حسن صقر

العلاقة بين الحروب الصليبية والكشوف الجغرافية

إذا تساءلنا عن العلاقة بين الحركة الصليبية والكشوف الجغرافية، نجدها علاقة وثيقة، لقد قامت حركة الكشوف الجغرافية تحدها الروح الصليبية التي سادت أوروبا قبل ذلك. وتعبير «الروح الصليبية» هنا لا يعنى المسيحية، فالمسيحية هي السلام، وهي المحبة، فالمسيحية التي تخاطب في الإنسان وجدانه لا يمكن أن تكون دافعا حقيقيا لذلك الصراع المرير الذي سجلته وثائق العصور الوسطى للعلاقات بين الشرق والغرب.

ولكن الصليبية هنا هي روح استعمارية^(١) تنطوى على الاحتلال^(٢) وتهدف إلى تحقيق أطماع ومصالح اقتصادية^(٣) أوروبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي ومن هنا فالكشوف الجغرافية ما هي إلا حلقة في سلسلة ذلك الصراع بين الشرق والغرب بل يمكن القول أنها إحدى الحملات الصليبية الشرسة على الشرق الإسلامي.

فحينما فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها الحقيقية بخروج آخر قواتها من الشرق وسقوط عكا عام ١٢٩١م^(٤) وخابت آمالهم الاستعمارية في الشرق، فإن ذلك لم يكن يعنى القضاء على الفكرة

(١) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص ٤٩.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية ج ١ ص ٣١١ (ترجمة د. حسن حبشي) وقد جاء عنوان الكتاب الخامس كما يلي بالحرف الواحد: "حصار أنطاكيا واحتلالها".

(٣) ارنست باركر: الحروب الصليبية ص ٢١ - ٢٢.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦.

الصليبية فى نفوس الأوربيين. إنما يعنى أنهم خسروا جولة قد تعقبها جولات ومحاولات . وجاءت المحاولة الجديدة للسيطرة على الشرق فى صورة حركة الكشوف الجغرافية.

فشلت الحركة الصليبية فشلا تاما فلم تتمكن أوروبا من احتلال الشرق الإسلامى . ولكن ترتب على الحركة الصليبية نتائج هامة مساعدة وممهدة لحركة الكشوف الجغرافية مثل نمو المدن أو نشأة المدن الكبرى فى أوروبا العصور الوسطى وازدياد حركة التجارة الأوربية وضخامتها حتى أن الطوائف الدينية العسكرية «الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون» تطورت إلى هيئات تجارية امتلكت أساطيل التجارة والبنوك^(١) ثم بذلت التجارة الأوربية المساعدة محاولات كبيرة للوصول إلى ثروة وسمع الشرق . وحققت فى ذلك نجاحا كبيرا ، فقد تمكنت من إقامة مستودعات تجارية فى الشرق مثل التى قامت فى عكا ، ثم فى فاما جستا بقبرص بعد سقوط عكا^(٢) وكانتا مركزين عظيمين لتجارة الشرق الأدنى، وبالتالي سيزداد اهتمام أوروبا بالشرق الأقصى فتسعى للوصول إلى مصادر المواد الخام وسمع الشرق بدون وساطة أحد، لذلك تسعى لاكتشاف طرق جديدة خاصة بها تتحكم فيها وهو ما يسمى بحركة الكشوف الجغرافية .

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٨٥ .

وترتب على الحركة الصليبية أيضا حصول الأوربيين على المعلومات والمعارف والإكثاف تجمعت المعلومات العسكرية عن الطرق المؤدية إلى مصر. ازدادت معارفهم الجغرافية ثم ما كان معروفا من كتب الإرشاد الخاصة بالحجاج لتهديتهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة ، لقد كان من نتائج الحروب الصليبية حصول الأوربيين على المعلومات الجغرافية^(١) ومنها ما هو عن طرق الملاحة فقد نجم عن الحروب الصليبية بعض الخبرات والمعارف .

ومن ناحية أخرى فان البعثات التبشيرية^(٢) المتتالية استطاعت التوغل فى آسيا برا من عكا إلى بكين . كما اتجهوا بحرا من البصرة إلى كانتون حتى تم ما يمكن أن يسمى اكتشاف آسيا . وهذا فى حد ذاته عمل بالغ الأهمية فهو توجه أوربى نحو آسيا لم يكن موجودا من قبل، يشكل إرصاصات أو مقدمات لحركة الكشوف الجغرافية ، ثم ما صاحب البعثات التبشيرية من اهتمام باللغات الشرقية ودراستها مما سيكون له أيضا أثر على حركة الكشوف الجغرافية.

ومن المؤرخين الأوربيين من يقر بأن الكنيسة اللاتينية كانت تطمع فى نشر الكاثوليكية فى مختلف أنحاء العالم حينئذ ولو بقوة السلاح^(٣) وقد قام المبشرون والجماعات الرهبانية التبشيرية مثل الفرنسيسكان

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢) Runciman : History of the Crusades : Vol. 1, pp. 159-160.

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٩ .

والدومينكان بمحاولات كبيرة لتحويل المسلمين والمسيحيين الشرقيين إلى الكاثوليكية على مذهب روما^(١) ، كان هدفهم صبغ الشرق بصبغة كاثوليكية بحتة. بدأت البعثات التبشيرية على يد القديس فرنسيس الذي حاول تنصير الملك الكامل الأيوبي^(٢) وانتشرت بعد ذلك البعثات التبشيرية حتى وصلت إلى بكين. ويجب ألا ننسى بأن البحث عن وسائل جديدة مباشرة للإلتصال بطرق التجارة الشرقية، يعتبر من الأغراض التي انطوت عليها الحروب الصليبية ذاتها وأدت إلى ما يصح تسميته اكتشاف أسيا في القرن الثالث عشر الميلادي^(٣).

وحرصت المدن الإيطالية على أن تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص، وبطريق مباشر بفضل ما تشيده من مستودعات في شرق البحر المتوسط، وكان هدف تجار المدن الإيطالية والفرنسية والأسبانية الذين شاركوا في الحملات الصليبية استغلاليا تجاريا واضحا فالكسب الكبير الذي يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء كبير للمشتغلين بها جعل امتلاك مصر وبلاد الشام والشمال الأفريقي حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو بيت القصيد فى السطرة على تجارة هذه السلع^(٤). لذلك بذلت أساطيلهم

(١) Baldwin : Medieval Church pp. 109 - 112.

(٢) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤ - ٨٥ وما بعدها.

زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٤ - ٤٦ .

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤ - ١٨٥ وما بعدها .

(٤) Pirenne : Economic and Social History, P. 31.

جهدا كبيرا وقاموا بدور فعال فى الاستيلاء على المراكز التجارية الرئيسية فى الشام . كما قاموا بدور كبير فى الحملات على مصر وشمال افريقيا بعد ذلك^(١) . وهذا يتضح فيما عقد من المعاهدات التى عقدها هؤلاء التجار مع حكام مملكة بيت المقدس اللاتين وكل ما تضمنته من امتيازات عديدة مالية وقضائية لصالح هذه الجاليات .

لقد كان للجاليات التجارية مصالح وأطماع قديمة فى هذه الموانى التى تفتح لها الطريق إلى الشرق الأوسط والشرق الأقصى ، وكانت المدن والموانى الواقعة على سواحل الشام مسرحا لصراع رهيب بين الجاليات التجارية الأوربية حول الأمور التجارية والمالية وكثيرا ما كان يتطور إلى قتال وحروب بين الأوربيين بعضهم البعض مما يؤكد تغليب وأهمية الجوانب والعوامل التجارية^(٢) . والإتجاه الإستغلالى الاستعمارى . إن الاحتلال أو الاستعمار ثم التجارة ثم الجغرافيا كل هذه الأمور كانت وثيقة الارتباط والصلة بالحركة الصليبية كما أنها أيضا وثيقة الارتباط والصلة بحركة الكشوف الجغرافية .

فشلت العسكرية الأوربية الصليبية فى السيطرة على الشرق العربى الإسلامى ذى الموقع المتميز والمحتر للتحارة العالمية وإخضاعه عسكريا .

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٩٥ وما بعدها .

محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) جرزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ص ٨٨

والمعروف أن طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كانت في يد الدول العربية الإسلامية^(١) . وعلى رأسها مصر تتحكم في نقل بضائع و سلع الشرق الأقصى إلى أوروبا وبالعكس . تجنى من ورائها أموالا طائلة من الضرائب والأرباح الوفيرة، وكان امتلاك مصر وبلاد الشام حيث تنتهي الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو الهدف الرئيسي للحروب الصليبية للسيطرة على تجارة هذه السلع فلما فشلت الحركة الصليبية في احتلال مصر والشام وصولا إلى سلع الشرق ، كان عليها أن تبحث عن طريق آخر يوصلها إلى هدفها تصل من خلاله إلى المورد الأصلي لسلع الشرق أو مصادر تجارة الشرق فكانت حركة الكشوف الجغرافية .

رأت أوروبا أن تضرب الشرق العربي الإسلامي في الصميم بكشف طريق جديد يصل بينها وبين الشرق الأقصى في الصين والهند وشرق آسيا دون المرور على مصر فكان طريق رأس الرجاء الصالح والمرور من جنوب أفريقيا . وقد ترتب على ذلك حرمان مصر والشام والخليج من الضرائب والأرباح .

انتزعت أوروبا السيطرة على طريق التجارة العالمي وتحكمت في التجارة الدولية^(٢) . وهزمت الشرق العربي اقتصاديا وسوف يكون لذلك

(١) جورج حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ١٩٥ .

Milles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf, P. 356

(٢) صلاح العقاد : التيارات السياسية ص ١٤ - ١٥ .

أسوأ الأثر على أوضاع تلك الدول، فدولة الممالك في مصر وما أصابها من أضرار نتيجة الكشوف الجغرافية وانتقال طرق التجارة العالمية من البحر الأحمر والبحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح يشهد به تاريخ تلك المرحلة، ولا يخفى ذلك على من له إلمام بتاريخ العصور الوسطى فباكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أنهارت تجارة سلاطين الممالك^(١). فكان أمرا طبيعيا أن تتدهور أوضاع المنطقة بعد أن سادها الضعف وترتب على ذلك ازدياد نفوذ البرتغاليين أصحاب الكشوف الجغرافية، وانتشر النفوذ البرتغالي وساد في المحيط الهندي والخليج العربي خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي ونجح الأوربيون الصليبيون في شخص البرتغاليين في تدمير القوى البحرية العربية في منطقة الخليج العربي فدمروا الموانئ العربية بما فيها من سفن راسية أو عابرة ومارسوا أعمال القرصنة والسلب والنهب للسفن العربية في الخليج^(٢). فسيطر الأوربيون على تجارة السلع الشرقية ومنعوا وصولها إلى موانئ مصر والشام.

تكررت الحملات البرتغالية في جنوب شبه الجزيرة العربية ومدخل

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٩٠ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ص ١٨ ، ١٩ .

Sousa : The History of the Discovery and Conquest of India by the Portugese vol. 3, p.103 .

البحر الأحمر حتى وصلوا إلى جدة، وتحالفت البرتغال مع الحبشة^(١) لضرب القوى الإسلامية وخلق جبهة صليبية تتصدى للقوة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية التي بدأت تقف في وجه النفوذ البرتغالي في البحر الأحمر والخليج^(٢). هكذا جاءت حركة الكشوف الجغرافية تحقيقا لنفس الهدف الذي سعت إليه الحركة الصليبية وفشلت في تحقيقه .

إن الحملات الصليبية وإن اتخذت من الصليب شارة وتعلت بحماية الأماكن المسيحية المقدسة والحجاج المسيحيين مما يلحق بهم على أيدي المسلمين رغم أنه لم تكن هناك مخاطر حقيقية^(٣) فإن هذا العامل الديني قد استخدم لكسب الرأي العام في أوروبا وحمل الجماهير على تأييد ودعم تلك الحروب الصليبية ومن الثابت والمؤكد أنه كانت لها أهداف سياسية واقتصادية تتمثل في الحيلولة دون سقوط روما والقسطنطينية في يد المسلمين^(٤)، ثم تحسين الأحوال الاقتصادية المتدنية في أوروبا حيث انتشرت المجاعات والأوبئة ، بفتح طرق التجارة خصوصا بعد أن امتد التوسع الإسلامي إلى جنوب فرنسا وطوقت الدول الأوروبية وأصبح البحر

(١) السيد رجب حراز : عصر النهضة ص ٣٢٥ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ص ٢٤٩ - ٢٥٣ .

Sousa : Op. Cit. Vol 3 PP.29 - 30

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٤ وما بعدها ، ص ١٥٧ .

عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٠ - ٣١ ، ص ٨٦ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ١٣ .

(٤) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ٩ ، ١٧ .

المتوسط بحيرة إسلامية مما أدى إلى التدهور الاقتصادي للدول الأوربية خاصة فرنسا^(١). فكانت هناك أطماع فى الحصول على ما بأراضى المسلمين من ثروات تخرج الشعوب المسيحية الأوربية من مشاكلها الاقتصادية وفى قول البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م ما يؤكد ذلك .

وهل يمكن لأى مؤرخ منصف أن يقرر أن اشتراك المدن التجارية الإيطالية وعلى رأسها البندقية فى الحروب الصليبية بذلك الحماس البالغ والكبير ، كانت دوافعه دينية ؟ لقد اندفعت تلك المدن التجارية الإيطالية، وقامت بذلك الدور الكبير فى الحركة الصليبية وقدمت التضحيات من أجل مصالحها الاقتصادية. لقد كانت الحركة الصليبية فرصة لتحقيق قدر من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والفكرة الصليبية^(٢). لكثير من الطوائف المشاركة وليس أدل على ذلك من قول السيد المسيح عليه السلام حين تجلى لكاهن يدعى ستيفن فى أنطاكيا خلال الحملة الصليبية الأولى.

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. 1, P. 302

(٢) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٨ .

جاء فى مقدمة الترجمة العربية ما يلى : كشفت العلاقات بين قادة الحملة عن المعنى الحقيقى للحركة الصليبية فكثيرا ما توارى الدين أمام المصالح الخاصة بالنبله ، وتؤكد الحرص على المصالح الخاصة دون المصالح الصليبية العام الذى ظهرت بوادره بمجرد انتهاء الفرنج من أعباء عبور اسيا الصغرى . وفى ص ١٥١ تحدث ريمونداجيل عن الصراع الذى قوض أسس العلاقات الودية بين الصليبيين بعضهم البعض بحيث أن قلة فقط هى التى كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء على السرقة والعنف . وفى ص ١٩٠ تحدث عن الصراع بين أمراء الحملة الأولى وسوء سلوكهم . وفى ص ٢٥٧ تناول تلك الصراعات أيضا .

فأمره المسيح قائلاً : " أبلغ الأسقف أن هؤلاء الناس بأعمالهم الشريرة قد أبعادوني عنهم" ^(١) والمعروف أن شعار البنادقة في الحروب الصليبية كان " لنكن بنادقة أولاً ثم مسيحيين بعد ذلك "

لقد عقدت المدن الإيطالية معاهدات مع القوى الصليبية بالشام حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية وتجارية هامة . وكما كانت السيطرة على مراكز التجارة العالمية وطرق الملاحة هدفاً هاماً من أهداف الحركة الصليبية ، فسوف نجد أيضاً أن مراكز التجارة الدولية وطرق الملاحة العالمية وسلعها كانت هدفاً سعت إليه حركة الكشوف الجغرافية . وإذا كانت أوروبا قد فشلت في تحقيق هذا الهدف من خلال الحركة الصليبية ، فقد نجحت في تحقيقه من خلال حركة الكشوف الجغرافية ^(٢) . إن صيغ الحركة الصليبية بصيغة دينية لم يكن إلا وسيلة لتحريض العامة وقناعاً تتخفى وراءه أهداف أخرى لا صلة لها بالدين ^(٣) .

(١) ريمونداجيل : المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ١٤ .

(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ٦ وما بعدها .

عبد الله عنان : مصر الاسلامية ص ١٠٨ وما بعدها .

أسباب ودواعي الحروب الصليبية .

لسنا في مجال بحث أو دراسة أسباب الحركة الصليبية ولكننا نتناولها من منظور واحد فقط وهو أن الفكرة الصليبية كانت قناعا يخفي وراءه دوافع سياسية واقتصادية ملحة خاصة في فرنسا^(١) مهد الدعوة للحروب الصليبية. ولا نعتمد هنا على المصادر العربية فقط إنما على المصادر الأوربية والبيزنطية وأهمها كتاب الألكسياد ALEXIAD الذي كتبه الأميرة آن كومنين ANNA COMNENA وفيه تكشف الأميرة أن بوضوح بالغ وصراحة تامة عن الإتجاهات الإستعمارية العدوانية للحركة الصليبية وجشع اللاتين وأطماعهم في الدولة البيزنطية والعالم العربي مسرح اتجاهاتهم التوسعية^(٢).

وفي هذا تقول آن كومنين (الكتاب العاشر) ما نصه : «لقد علم والدي بأن جموعا غفيرة من جنس الفرنج كانت تقترب من العاصمة ولقد فرغ من تلك الأخبار ، فهو يعلم جيدا أن الفرنج أصحاب نزوات جامحة، وأنهم منقلبوا الطباع، شديدو الجشع، ولا يؤتمنون في شيء»^(٣).

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. 1, P. 303.

(٢) P. 249 - 263.

أورد الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم ترجمة عربية لجزء من هذا الكتاب بلغ سبعة عشر صفحة في الملحق الثالث من كتاب العرب والروم واللاتين ص ٢١٢ .

(٣) See the Alexiad of Anna Comnena (Translated from The Greek by E.R.A. Sewter, P. 308.

وصف أن كومنين لمنظر وهيئة بطرس الناسك والحملة الشعبية وقائدها Gautier Sans avoir والقائد والترالمفلس Walter the Penniless فقانون الاقطاع كان يعطى اللقب والأراضى للإبن الأكبر فقط والباقي يصبحون فرساناً مفلسين، وقد وجد هؤلاء ضالتهم فى الحملة الصليبية، فقد كان بلدوين شقيق جودفرى من اللورين فارساً مفلساً ثم صار ملكاً لبيت المقدس بعد ذلك. وكذلك دعوة البابا أوربان الثانى للعسل واللبن فى الشرق مما يؤكد وجهة نظرنا.

ورغم كل ما يمكن أن يقال من أن البابوية هى التى دعت إلى الحرب الصليبية المقدسة فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م فى مؤتمر كليرمونت بفرنسا (١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥)^(١). وأن البابوية هى التى أشرفت عليها وباركتها^(٢) وأن فرنسا كانت موطن الحركة الكلوئية، وما يمكن أن يقال أيضاً عن سلطان الكنيسة الطاغى وسطوتها فى تلك العصور وما كان للدين والكنيسة من قوة عظيمة حتى على الملوك والأمراء والأباطرة بما توقعه عليهم من قرارات الحرمان واللعنة والقطع، وكيف كانت الدعوة إلى حرب صليبية سلاحاً ماضياً فى يد البابوية تشهره فى وجه الخارجين عليها، وأن العصور الوسطى هى عصور الإيمان وعصور التفكير الدينى^(٣).

(١) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٥ .

(٢) Baldwin : The Medieval Church, P.P. 103 -4.

Arnold : Legacy of Islam, PP. 69 - 70.

(٣) ارنست باكر : الحروب الصليبية ص ٢٠ وما بعدها.

ورغم طلب الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع العون من البابا جريجورى السابع الذى استعد لإرسال حملة تساعد البيزنطيين على استرداد آسيا الصغرى من يد المسلمين مقابل اتحاد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية خاصة بعد نجاح الحرب المقدسة فى إسبانيا. ورغم استنجاد الكسيوس بالبابا أوربان الثانى^(١) أكثر من مرة .

رغم كل ذلك فمن المؤرخين الأوروبيين من يرى أن الحروب الصليبية هى امتداد واستمرار لحروب التوسع الإقطاعى التى كان يقوم بها كبار الإقطاعيين فى أوربا قبل الحروب الصليبية^(٢) بينما اتخذوا من الأسباب الدينية ستارا يخفى أغراضها الحقيقية والتى ليست من الدين فى شئ وتعمدوا إضفاء الصبغة الدينية بقصد التمويه وإبعاد الشبهات عن الأهداف الحقيقية للحروب الصليبية.

لقد وجدت البابوية فى الحركة الصليبية فرصة سانحة لیسط نفوذها على أوربا كلها بالتخلص من نفوذ أمراء الإقطاع وإرسالهم فى هذه الحروب لتوسيع إقطاعياتهم والاستيلاء على أراضى جديدة للحصول على ثروتها الهائلة بالقوة^(٣) والصراعات الطاحنة والمتكررة بين أمراء الحملة الصليبية الأولى تؤكد ذلك^(٤).

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين. ص ٤٩ أول من قال بهذا الرأى لويس هالفن فى كتابه (انطلاقة أوربا فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر).

(٣) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص ١٦ ، ١٨ ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ .
Sousa : Op. Cit. Vol. 1, pp 60 - 61.

(٤) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ١٢٥ (هامش رقم ١٠) .

كما وجدت البابوية فى الحروب الصليبية أيضا فرصة عظيمة لتحقيق ما تصبو إليه منذ زمن طويل بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية على المذهب الكاثوليكي. وبالتالي فرض سلطانها الدينى والديوى على العالم المسيحى شرقه وغربه وذلك بعد الشقاق الدينى المعروف ١٠٥٤م^(١) وصبغ الشرق العربى بصبغة كاثوليكية بحثة بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها.

إن صبغ الحركة الصيبيية بصبغة الدين لا يعنى إطلاقا أنه كان العامل الحقيقى الذى أدى إلى قيامها. إنما كان وسيلة لجمع الشعوب لتحقيق أهداف أخرى سياسية واقتصادية ثقافية واجتماعية^(٢) يؤكد ذلك قول ريموندا چيل : «ذلك فإن الرب، الذى لم يشأ أن يساعدنا فى حصار قمنا به فى سبيل مصالح ظالمة وليس فى سبيلة، أمطرنا بكل أنواع المصائب. ومن الغريب أن المسيحيين الذين كانوا يتشوقون من قبل إلى المعارك ويستعدون لها، أصبحوا الآن لا يميلون إلى القتال ولا يتمتعون بالحوية...»^(٣).

ولكى تحقق البابوية أغراضها وعدت كل من يشارك فيها بالغفران

(١) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٨٨ وما بعدها.

Baldwin : Op. Cit. PP. 109 - 112

(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ٦ - ٩.

فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٦ . ترجمة زيادة والعرينى .

(٣) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ١٨٦ .

التام من الخطايا والآثام. والمؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه المعروف بتعصبه لقوميته الفرنسية، اعترف فى كتابه «حصيلة التاريخ» بأن الحركة الصليبية لم تقم نتيجة لدوافع دينية^(١).

لقد كان من مصلحة البابوية تشجيع الحروب الصليبية التى صارت معنا لا ينضب من المال الذى امتلأت به خزائنها، بما فرضته من ضرائب مختلفة بحجة الإنفاق عليها. بينما كانت فى الواقع تنفق على أوجه أخرى تحقيقا لمصالح البابوية وأطماعها العلمانية^(٢).

إن ما ارتكبته الحملة الصليبية الأولى من أعمال بالأراضى البيزنطية^(٣) من نهب وسلب وتخريب حتى الكنائس لم تنج من الصليبيين، لدليل واضح على أن العوامل الدينية لم تكن هى الدافع الحقيقى للحركة الصليبية. ولعل فى قول وليم الصورى ما يوضح ذلك إذ يقول: "استبد بالإمبراطور وبجميع من حوله الفرع الكبير حين رأوا البلد بأكمله عرضة للنهب. كما أنه لم يعد فى قدرة الإمبراطور احتمال أنين شعبة وبكائة"^(٤). وفى رسالة من الإمبراطور البيزنطى إلى بوهيموند يقول فيها: "فإننا

(١) Grousset : The Sum of History, P. 191.

(٢) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٩٥ - ١٩٦ .

جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين. ص ٧٢ .

Arnold, Op. Cit. PP. 69 - 70.

(٣) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ص ١٧، ٧٨ .

Runciman, S : The First Crusaders Journey across The Balkan Peninsula. B. 18 1948. PP. 207 - 221.

(٤) وليم الصورى : الحروب الصليبية ج ١ ص ١٦٥ .

نلتمس منك أيها الصديق الحبيب أن توعدز إلى أتباعك بكف أيديهم ومنع
أذاهم عن رعايانا، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو إضرار
الحرائق»^(١).

ثم إن النزاع الدائم المستمر بين رجالات الحملة الصليبية الأولى
حول السيطرة على البلدان التي يفتحونها^(٢) لدليل آخر، يتضح ذلك جليا
من شهادة شاهد عيان للحملة الصليبية الأولى بل من أهم مؤرخيها إذ
يقول: «وترك فرنساننا أنطاكيا، متجاهلين المصلحة العامة، وجريا وراء
الآمال الأنانية لكسب بعض المنافع المادية حتى من بقوا فى المعسكر كانوا
يستمتعون بحياة الترف لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون إلا أحسن قطع اللحم
كالخز والأكثاف...»^(٣). وفى موضع آخر يقول: «وأحجمت قواتنا عن
مهاجمة القلعة، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويضعون سجلا
وأمعنوا فى نسيان الله مانح كل هذه النعم فأفرطوا فى الأكل بنهم شديد
وبذخ واهتموا بالراقصات»^(٤). إن بلدوين شقيق جودفرى وأحد زعماء
الحملة الأولى والذي استقر فى الرها حيث أسس لنفسه إمارة بها، وذلك
قبل أن تصل الجيوش إلى بيت المقدس، إن ذلك لدليل قاطع على

(١) وليم الصورى : الحروب الصليبية ج ١ ص ١٧١ .

(٢) ريموندا چيل : تاريخ الفرنجه غزاة بيت المقدس ص ٣٢ - ٣٣ .

Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 393.

(٣) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ٨٦ .

(٤) ريموندا چيل : المصدر السابق ص ١٢٠ .

الاتجاهات التوسعية للحركة الصليبية منذ بدايتها^(١) كما أن هجماتهم على مصر ١١١٨م عن طريق العريش ومحاولتهم احتلالها وتكرار المحاولة على يد عمورى ملك بيت المقدس عدة مرات دليل أيضا على الاتجاهات التوسعية فى الشرق العربى^(٢) كما أن الحملة الصليبية الرابعة كانت دليلا قاطعا على انعدام الباعث الدينى من ناحية وتأكيدا للأهداف التوسعية^(٣) للحركة الصليبية من وراء ستار الدين من ناحية أخرى.

(١) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٧٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص ٤ وما بعدها .

ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ١٨٧ - ١٨٩ .

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ٢١ .

أسباب ودوافع الكشف الجغرافية

أولاً - الدوافع الدينية

لاشك أن العوامل الدينية كانت من العوامل التي لعبت دوراً ما في حركة الكشف الجغرافية التي لا تخرج عن كونها حلقة ضمن سلسلة الحروب الصليبية التي امتدت خلال العصور الوسطى .

إن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب يدرك أن الانتصار الحاسم الذي أحرزه المسلمون على الصليبيين في مصر والشام لم يضع حداً للعداء الأوربي نحو الشرق الإسلامي وسيستمر العداء المرير وإن اختلف المسمى ، فالهجومه الصليبية القادمة خرجت من البرتغال وباركتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية ففي عام ١٤٥٤م أصدر البابا نيقولا الخامس منشوراً يبارك فيه جهود هنرى الملاح ويعلن أحقيته في غزو الشعوب التي يسودها أعداء المسيح^(١) حتى الهند .

وبعد وفاة نيقولا ١٤٥٥م ، أصدر البابا الجديد كاليكستوس الثالث مرسوماً في سنة ١٤٥٦م أكد فيه كل ما جاء عن البابا السابق نيقولا الخامس^(٢) . وأورد ذلك المؤرخ المسلم المعاصر زين الدين في كتابه

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوي : أوربا في مطلع العصور الحديثة ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٦ وما بعدها .

« تحفه المجاهدين » فيها يقول بالنص « ثم أن بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وإدخالهم فى النصرانية^(١) » فلقد استحوذت على البرتغاليين والأوربيين عامه فى تلك المرحلة فكرة تحويل المسلمين فى آسيا وأفريقيا إلى المسيحية^(٢) فبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م^(٣) كانت مرحلة تتبّع المسلمين فى كل مكان برا وبحرا إلى شمال أفريقيا^(٤) وقد أكد بانىكر أن روح التعصب ضد الإسلام والمسلمين قد سادت أسبانيا والبرتغال فى القرن السادس عشر الميلادى^(٥) .

كانت فكرة مواجهة الإسلام فى عقور داره من أبرز دوافع وأهداف حركة الكشوف الجغرافية وهذه الفكرة وإن كانت قد سيطرت على العالم الأوربي المسيحي منذ زمن فقد ازدادت الحماسة لها فى القرن السادس عشر ، ذلك أن حركة الكشوف الجغرافية تعنى الالتفاف حول العالم الإسلامى وتطويقه^(٦) . فالكشوف الجغرافية كانت الوسيلة الفعالة لدى الصليبيين الأوربيين للوصول إلى قلب العالم الإسلامى .

(١) ص ٤٦ .

(٢) رجب حراز : عصر النهضة ص ٣٠٩ .

(٣) Shaw : The Ottoman Empire Vol. 1, P. 99

(٤) عنان : نهاية الأندلس ج٤ ص ١٦٨ .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٥٣ .

(٥) آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٤ .

(٦) Shaw : The Ottoman Empire Vol. 1, P. 99.

وفضلا عن ذلك فإن التوسع العثماني في أوروبا كان له أثره على حركة الكشوف الجغرافية فقد فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م وتردد صدى هذا الفتح في أسبانيا كما تردد في كل أنحاء أوروبا وأزداد الحقد الصليبي ضد المسلمين خشية مدهامة الإسلام لهم في عقر دارهم لذلك حاولت أوروبا الصليبية استئصال القوى الإسلامية .

فهناك علاقة وثيقة بين سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين وبين قيام حركة الكشوف الجغرافية ، ذلك أن فتح العثمانيين للقسطنطينية وتهديدهم لأوروبا من بابها الشرقي زاد من روح الكراهية ضد العالم الإسلامي^(١) يؤكد ذلك موقف البابا كاليستوس الثالث الذي بذل أقصى جهوده لتأليب أوروبا الصليبية ضد الشرق الإسلامي وتكون حلف صليبي لمحاربة العثمانيين واسترداد القسطنطينية ، ولذلك شرع للصليبيين صلاة التبشير Angelus يتوسلون بها للنصر على الأتراك وهو نفس البابا الذي أصدر مرسوما سنة ١٤٥٦م أكد فيه كل ما جاء عن البابا السابق نيقولا الخامس^(٢) .

(١) عنان : نهاية الأندلس ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ١١٢ وما بعدها .

ويستمر تشجيع الكنيسة الكاثوليكية الأوربية لحركة الكشف الجغرافية ، ويذكر التاريخ المراسيم التي أصدرها البابا اسكندر السادس سنة ١٤٩٣م^(١) .

ولو أضفنا إلى ذلك ما قيل حول أسطورة برستر جون أو الكاهن يوحنا تلك الأسطورة الأدبية التي شاعت وانتشرت في أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي حول الكاهن يوحنا البطريرك المسيحي الذي أسس امبراطورية مسيحية ضخمة في الشرق بكل ما أحاط بها من خيال عجيب عن ثرائها وسلطانها^(٢) واستعدادها لقتال أعداء المسيح .

وصارت تلك الأسطورة في القرن الثالث عشر الميلادي تعبر عن آمال الصليبيين في مساعدة ذلك الامبراطور في هزيمتهم للعالم الإسلامي ، خاصة بعد انتصار المسلمين في الشام ومصر على الصليبيين ، ثم ارتبطت هذه الأسطورة بملكه الحبشة وتمثلها الصليبيون في شخص ملوك الحبشه الأقوياء الذين يحاربون المسلمين من حولهم ثم أيضا في خانات المغول بعد ذلك خاصة هولاكو الذي كان متزوجا من امرأة نسطورية المذهب وكان حليفا شديدا لملوك الأرمن ضد المسلمين وفسر

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٨ وما بعدها .

أحمد دراج : الماليك والفرنج ص ٨٥ وما بعدها .

The Cambridge Hist. of Africa, Ethiopia And The Red sea (٢)

Vol. 3. PP. 177 - 178 .

الأوروبيون هذه الحروب على أنها تدخل ضمن دائرة الحروب الصليبية التي تستهدف المسلمين^(١) .

ثانيا - الدوافع الاقتصادية :

كان البرتغاليون أول من بحث عن امبراطورية برستر جون فبعثوا إلى الحبشه فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى^(٢) بعدة بعثات سبقت البعثات الكشفية والجهود البحرية الكبيرة التى قام بها البرتغاليون للعبور حول طرف أفريقيا الجنوبى^(٣) وكان الهدف الرئيسى لرحلة بارثلميو دياز هو الوصول إلى امبراطورية برستر جون ، والاتصال به فى شرق أفريقيا^(٤) وقد أورد المؤرخ البرتغالى سوزا Sousa تلك الفكرة عند البرتغاليين^(٥) فشرحها ووضحها .

ورغم كل ذلك فلا نميل إلى الاعتقاد بأن الدوافع الدينية وحدها كانت وراء حركة الكشوف الجغرافية فهذه الدوافع الدينية وإن كان لها

(١) عبد المجيد عابدين : الحبشه والعرب ص ١٦٨ وما بعدها .

(٢) عبد المجيد عابدين : الحبشة والعرب ص ١٦٩ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق .

(٤) يسرى الجوهري : الكشوف الجغرافية ص ١٣٠ وما بعدها .

(٥) Sousa : The History of the Discovery and Conquest of India

by the Protugese P. 63 .

نصيب من الصحة إلا أنها لم تكن وحدها كافية للقيام بمغامرة الالتفاف حول أفريقيا ، والأرجح أن الدافع الإقتصادي كان الدافع الرئيسي فلم تكن الدوافع الدينية إلا ستارا أستترت من ورائه دوافع اقتصادية ومصالح استعمارية تماما مثلما كانت الحركة الصليبية ، فالغاية فى الحالتين تتمثل فى تحقيق المصالح الإقتصادية ، والإستعمارية ، ورغبة أوروبا فى السيطرة على العالم العربى الإسلامى واستغلال موارده وثرواته فإن كان الاحتلال العسكرى قد فشل بسقوط الإمارات الصليبية فى الشام ، فلم لا تكون السيطرة الإقتصادية بتحويل طرق الملاحة والسيطرة، والتحكم فى طرق التجارة العالمية من خلال حركة الكشوف الجغرافية ؟

كانت البرتغال أقدر دولة أوربية على القيام بحركة الكشوف بشواطئها الطويلة على المحيط الأطلنطى وموقعها الجغرافى مما أهلها لريادة حركة الكشوف الجغرافية ، كما كانت البرتغال سباقة فى الإتصال بالمدن التجارية الإيطاليه خاصة جنوه والبندقية ، فأخذت من خبرتهما فى فنون البحر والملاحة . وقد أحضر^(١) دون بدرو البرتغالى نسخة من كتاب رحلة ماركو بولو من مدينة البندقية وقدمها لأخيه هنرى الملاح المعروف بحماسة وجهوده فى حركة الكشوف الجغرافية ، وقد لعب الأمير هنرى الملاح دورا كبيرا فى تلك الحركة ، فهو ابن الملك جون ملك

(١) فشر : أوروبا العصور الوسطى ج٢ ص ٤٦٢ وما بعدها .

رجب حراز : عصر النهضة ص ٣٠٦ .

البرتغال . كان محاربا صليبيا له تاريخ خافل بحرويه ضد المسلمين فى شمال أفريقيا ، وعرف عنه كراهيته الشديدة للمسلمين ورأى فى حربهم ضرورة دينية^(١) وقد نشأ وتربى فى أحد الأديرة الإسبانية وكان رئيسا لطائفة الجيزويت .

وقد استفاد هنرى الملاح من ثراء الرهبان اليسوعيين ، فأنشأ مرصداً ومدرسه بحرية وأحضر إليها الخبراء والعلماء فى الخرائط والرياضيات والفلك وعلوم البحار واهتم ببناء أقوى وأكبر السفن آنذاك^(٢) . وفى عهد هنرى وبفضل جهوده تم كشف جزر ماديرا فى سنة ١٤٢٠م وجزر أزورس فى ١٤٣١م ووصلت الرحلات البرتغالية إلى السنغال^(٣) .

عرف الأوربيون كثيراً عن ثراء الشرق وحضارته المتقدمة ، والسلع الشرقية وأهمها السلع الآتية من الهند والشرق الأقصى مثل التوابل بأنواعها والعقاقير ، القرفة والقرنفل والراوند والكافور والزنجبيل والخلنجان والشمرو الحبهان وجوزة الطيب والزعفران .

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ وما بعدها . شينى : تاريخ العالم الغربى ص ١٧٥ وما بعدها .

(٣) يسرى الجوهري : الكشوف الجغرافية ص ١٢٨ وما بعدها .

شينى : المصدر السابق ص ١٧٦ وما بعدها .

ومن سلع الشرق الأقصى المسك والبخور والصندل والعود والجاوى
والمصطكى واللادن واللبان وخشب الساج وأنواع العطور والأحجار
الكريمة وغير ذلك^(١) .

ومن سلع شرق أفريقيا الدقيق والذهب وجلود النمر والعاج والعنبر
والصمغ وريش النعام . ومن سلع البحر الأحمر^(٢) السيوف والبن والصمغ
والبخور والزعفران ، ومن مصر الحبوب والكتان وقصب السكر
والسمسم وماء الورد والتبغ .

ومن العراق التمور المختلفة والحناء والمنسوجات وماء الورد وزيت
السمسم والسكر والنيله للصباغة^(٣) ومن فارس المنسوجات المختلفة
والثياب والستائر والبسط والعطور والفضة والمعادن والحديد والنحاس
والكبريت ومواد الكتابة^(٤) علاوة على اللؤلؤ والخيول ومنتجات الخليج
العربي ومنتجات جنوب شبه الجزيرة العربية .

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٢٥ وما بعدها .

(٤) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٩٤ وما بعدها .

المقدسى : المصدر السابق .

ازدهرت التجارة بتلك السلع عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ومصر ،
وهو طريق الملاحة العالمى القديم حيث ازدهرت موانى عالمية عبر تلك
الطرق إلى موانى الشام ، مثل هرمز وسيراف والبصرة والبحرين وعمان
وصحار ومسقط وقلهات ثم موانى البحر الأحمر ومصر .

عرف الأوربيون الكثير عن الشرق وراثته الناتج عن نقله التجارة
العالمية عبر الطرق الملاحية ، وعرف البرتغاليون تحكم وسيطرة المسلمين
على طرق الملاحة والتجارة بين شرق العالم وغربه ، واحتكارهم لها وما
ترتب على ذلك من ضرائب تفرض على هذه السلع ، وأيقن البرتغاليون
أن التجارة هى سبب قوة العالم الإسلامى ، لذلك رأوا أن أفضل ضربة
توجه لهذا العالم هى ضربة اقتصادية تقضى على احتكار المسلمين لهذه
السلع وهذه التجارة ، وتقضى على تحكّمهم فى طريق الملاحة الدولية بين
شرق العالم وغربه^(١) .

وكانت لتلك السلع الشرقية أهمية كبرى عند الأوربيين خاصة
التوابل التى صارت أثمانها تقترب من أثمان الأحجار الكريمة والذهب

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٤٢٥ .

الحميرى : الروض المعطار ص ٣٣٢ وما بعدها .

ابن بطوطه : تحفة النظار ص ٢٧٨ وما بعده

جورج حوارنى : العرب والملاحه ص ٢٠٧ وما بعدها .

وذلك للرسوم الجمركية العالية التى تفرضها دول العالم الإسلامى^(١)
عبر خطوط الملاحة .

فدولة المماليك فى مصر كانت تفرض ضرائب جمركية عند السويس
مرة ثم عند الإسكندرية مرة أخرى ، لذلك قرر الصليبيون القضاء على
احتكار الشرق الإسلامى للتجارة الدولية واتخذوا من العوامل الدينية
ستارا يخفى أهدافهم الحقيقية وهى الأهداف الاقتصادية ، وقد تحدث
المؤرخ زين الدين^(٢) عن العوامل الإقتصادية التى دفعت البرتغاليين
للكشوف الجغرافية ومحاولة الوصول إلى الخليج العربى ثم الهند وأشار
إلى تجارة التوابل .

ومما يوضح أهمية العوامل الإقتصادية الاستعمارية فى حركة
الكشوف الجغرافية ما جاء فى مرسوم البابا نيقولا الخامس للأمير هنرى
عام ١٤٥٤م ، يبارك فيه جهود هنرى الملاح ، ويعطيه الحق فى جميع
البلدان التى يكتشفها حتى الهند «وله الحق أن يغزوها جميعاً»^(٣) .
وتلك عبارة صريحة تنطق بالحقيقة الكامنة وراء الستار الدينى .

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢١ .

(٢) تحفه المجاهدين ص ٣٧ وما بعدها .

(٣) بانيكار : آسيا والسيرة الغربية ص ٢٦ وما بعدها .

عبد العزيز الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص ١١٢ وما بعدها .

كشف طريق رأس الرجاء الصالح :

جاءت رحلة بارثلميو دياز الذي خرج من لشبونة سنة ١٤٨٧م وسار مجازيا للشاطئ الغربي لأفريقيا حتى عبر جنوب القارة^(١) ثم عاد إلى لشبونة فوصلها ١٤٨٨م^(٢) . وبعد نحو عشر سنوات تم فاسكودي جاما حركة الكشوف الجغرافية فخرج من لشبونة في يوليو ١٤٩٧م ووصل إلى غرب الهند في مايو ١٤٩٨م حيث مكث نحو ثلاثة أشهر ثم رجع إلى جاما إلى البرتغال في مايو ١٤٩٩م وأستقبل استقبالا حافلا .

هكذا بدأ تحقيق الكثير من أهداف الصليبية الأوربية في الشرق الإسلامي بعد عبور بارثلميو دياز رأس الرجاء الصالح ، ووصول فاسكودي جاما إلى الهند .

وترسل البرتغال حملة أقوى وأضخم بقيادة فاسكودي جاما وقد قلده الملك راية القيادة في احتفال كبير بالكنيسة ولقبه بـ « أمير البحار الشرقية »^(٣) وبدأ دي جاما يضع الأهداف الصليبية الاستعمارية

(١) يسرى الجوهري : الكشوف الجغرافية ص ١٣١ .

(٢) شيني : تاريخ العالم الغربي ص ١٧٧ .

يسرى الجوهري : المرجع السابق ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) Sousa : Op. Cit. Vol. 1, PP. 63 - 64 .

موضع التنفيذ حسب أوامر حكومته وخطتها ، فقام بإغلاق مدخل البحر الأحمر الجنوبي ومنع سفن المسلمين من الإبحار فيه ، وكان البرتغاليون قد احتلوا جزيرة مدغشقر وعددا من المدن الواقعة على ساحل شرق أفريقيا ، وأقاموا المحطات والمراكز فى طريق الهند وهدفهم إنشاء مركز تجارى برتغالى على ساحل الهند^(١) ومارس البرتغاليون كل ألوان القرصنة والإرهاب والوحشية ضد المسلمين^(٢) ، فقطعوا الطرق واستولوا على السفن ولم يسلم منهم حتى الحجاج المسلمين فقد وقعت فى يدهم سفينة حجاج أمام ساحل المليبار متجهة إلى مكة تابعة للسلطان قنصوه الغورى المملوكى فحملوا ما بها من بضائع ثم أحرقوها بركابها حتى غرقت^(٣) .

وأحرقوا مدن المسلمين ومساجدهم وداسوا المصاحف بأقدامهم وأجبروا المسلمين على الدخول فى المسيحية^(٤) .

وكما قام الصليبيون بحملات تبشيرية زمن الحروب الصليبية ، قام البرتغاليون أيضا أثر الكشوف الجغرافية بمحاولات تبشيرية بين

(١) بانيكار : المرجع السابق ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) ابن الديبع : قره العين ج ٢ ص ٢٠٦ .

الشيلى : السنن الباهر ورقة ٦٧ .

(٣) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٠ وما بعدها .

(٤) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٤ وما بعدها .

أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى الهند ج ٢ ص ١٩١ ويدها .

المسلمين فى كل مكان ، وقد وجدت هذه الحركات مقاومة كبيرة من جانب المسلمين حتى على ساحل مليبار وتصدى لها ذوا النفوذ من كبار تجار الجوجرات^(١) والدكن ، وتطور الأمر إلى حد المقاومة العسكرية للبرتغاليين رغم التفاوت الكبير فى الأسلحة والمعدات ، وقد حمل دى جاما من واحد من التجار البهار فقط سفنا تحمل خمسة آلاف قنطار مما يوضح الهدف من الكشوف الجغرافية . اختص البرتغاليون المسلمين دون سواهم بحربهم ووحشيتهم البالغة أكد تلك الحقيقة المؤرخون المسلمون المعاصرون ومنهم زين الدين الذى وصف كل ما لاقاه المسلمون دون غيرهم على أيدي البرتغاليين^(٢) . وتناول ذلك النهروالى^(٣) الذى أكد عنف وشراسة البرتغاليين فى محاولاتهم للقضاء على المسلمين . وذكر ابن إياس هجوم البرتغاليين على سفن المسلمين^(٤) . وأشار ابن الديبع إلى وجود الإفرنج على طول الطريق إلى الهند وتصيدهم للمسلمين وقطع الطريق عليهم دون سواهم^(٥) .

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٩٨ .

Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 65 - 66 .

(٢) تحفة المجاهدين ص ٤٤ - ٤٦

(٣) البرق اليمانى ص ١٨ ، وما بعدها .

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ص ١٨٥ .

(٥) قرّة العين ص ٢٠٦ .

وهنا نتساءل هل كان عنف البرتغاليين وشراستهم ضد المسلمين فقط دون سواهم لأسباب دينية بحتة ؟ بالطبع لا .

لم تكن الأسباب الدينية فقط من وراء ذلك إنما كانت الدوافع والأهداف الإقتصادية هي التى دفعت البرتغاليين الصليبيين لعدائهم المرير للمسلمين . خرج البرتغاليون فى حركة الكشوفات للسيطرة على السلع الشرقية العالمية واحتكارها وتحويل طرق التجارة القديمة إلى طرق جديدة ثم انتزاع السيادة البحرية والتجارية من أيدي المسلمين . أى تحويل التجارة الدولية من البحر الأحمر والخليج العربى وموانئ الشام ومصر إلى البحر المتوسط حيث ينقلها التجار البنادقة إلى أوروبا . ولكى يتم الغاء هذا الطريق وتحويل التجارة إلى طريقهم الجديد طريق رأس الرجاء الصالح تحت سيادتهم وسيطرتهم لم يكن من السهل أن يتم ذلك دون اصطدام بالمسلمين أصحاب السيادة القديمة وأصحاب المصلحة . إن المسلمين لم يكونوا ليستسلموا للبرتغاليين دون مقاومة عنيفة كان لابد اذن من عنف وشراسة بالغة من البرتغاليين لينتزعوا ما بأيدي المسلمين من سيادة بحرية واحتكار للتجارة العالمية .

حينما حاول البرتغاليون اختراق البحر الأحمر المؤدى إلى موانئ الشام ومصر محاولين الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز تصدى لهم سلاطين المماليك فى مصر بكل قوة مدركين مدى خطورة

ذلك على اقتصادهم وسيادتهم البحرية والتجارية حت احبطوا هذه المحاولات الصليبية . وبعد سقوط الدولة المملوكية كقوة إسلامية تحمى مصالح المسلمين ، برزت الدولة العثمانية لتكمل الدور فتحكم سيطرتها على البحر الأحمر ليظل بحراً إسلاميا وليظل ذلك الطريق تحت السيادة الإسلامية فكان لزاما على البرتغاليين ذوى الأطماع الاستعمارية ان يوجدوا لهم طريقا آخر كما كان لزاما عليهم أن يوقعوا بالمسلمين أكبر الهزائم لينتزعوا ما بأيديهم .

كان الصراع رهيبا بين القوى الإسلامية والقوى الأوربية الصليبية على التجارة العالمية واحتكار السلع الشرقية ، ولم يكن صراعا دينيا بل كان صراعا اقتصاديا إتخذ من الدين قناعاً زائفا .

احتل البرتغاليون جزيرة سقطره ١٥٠٧م لأحكام السيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبالتالي القضاء على نفوذ الممالك فيه، كما احتلوا هرمز^(١) وبعد ذلك حاولوا احتلال عدن ، ولم يتمكنوا فحرقوا السفن الموجودة بالميناء ، وأعادوا المحاولة وهزموا مرة ثانية^(٢) . ولم تتوقف محاولات البرتغاليين لاحتلال عدن حتى سقطت دولة

(١) ابن الدبيع : قرة العين ص ٢١١ .

ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٨ ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٦ وما بعدها .

الماليك وظلت سفنهم تهاجم سفن المسلمين وتستولى عليها لينتزعوا
السيادة على أسواق و سلع الشرق ومنها التوابل^(١) .

ظل البرتغاليون يهاجمون موانئ وسفن المسلمين حتى نجحوا فى
إغلاق البحر الأحمر والخليج العربى فى وجه تجارة و سلع الهند ، بل
تعقبوا المسلمين فى المحيط الهندى والموانئ الهندية حتى تمكنوا من
تحويل التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وانخفضت الأسعار فى
لشبونه وأوربا لحد بعيد بينما انهار اقتصاد دولة المالك فى مصر بعد
انخفاض مواردها المالية من الضرائب المفروضه على التجارة فى موانئها
وحرمانها من سلع الشرق الأقصى^(٢) ، فانهارت تجارة مصر المملوكية ،
واهتز اقتصادها^(٣) لحرمانها من مصدر ثرائها الأول رغم مقاومتها
المستميتة .

لم يستسلم المالك بسهولة فقد أرسل السلطان قنصوه الغورى
حملة بحرية إلى الهند يقودها حسين الكردى سنة ١٥٠٨م^(٤) فهزم
الأسطول البرتغالى فى البداية عند جزيرة « ديو » لكن البرتغاليين

(١) البحرى : فتح العثمانيين عدن ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ وما بعدها .

هاجموه ثانية وأوقعوا به هزيمة ودمروا سفن المسلمين وكان ذلك سنة
١٥٠٩م^(١).

وفى عام ١٥١٣م هاجم البوكرك عدن واستنجد حاكم اليمن بسultan
الماليك فى مصر فجهز حملة إلى الهند^(٢) وتضافرت القوى الإسلامية
صاحبة المصلحة فأرسل السلطان العثمانى بايزيد الثانى الأسلحة
والمعدات والأخشاب لبناء السفن^(٣)، ولم تتمكن هذه الحملة من الوصول
إلى الهند والقضاء على النفوذ البرتغالى بها . كل ما تمكنت منه هو
الدفاع عن المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

ولما فشل البرتغاليون فى السيطرة على البحر الأحمر توجهوا
بأطماعهم إلى الخليج العربى للسيطرة على مراكز التجارة فيه^(٤) .
وانتزاعها من أيدي المسلمين وذلك مثل قلعات وقرباط ومسقط
وخورفكان وهرمز والمنامة فى البحرين . واتخذ البرتغاليون فى ذلك كل
ألوان الوحشية والبربرية^(٥) وتذكر المصادر عنف المذبحة التى قام

(١) Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 147 - 149 .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٨٢ - ٣٠٧ . النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٠١ . البحراوى : فتح العثمانيين عدن ص ٤٧ .

(٤) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤ وما بعدها .

(٥) Sousa : Op. Cit. Vol. I PP. 126 - 127 .

بها البوكيرك فى مسقط وكيف غطت جثث المسلمين مياه الخليج حتى
كان البرتغاليون يذهبون الحلى الذهبية التى يرتدينها^(١) .

تمكن البرتغاليون من تدمير القوى البحرية العربية الإسلامية فى
الخليج العربى بعد أن احتلوا مراكز التجارة فى الخليج ، وعمل
البرتغاليون على منع العرب من التجارة مع الهند والشرق الأقصى بكل
الوسائل العنيفة^(٢) .

بدأت المقاومة ضد البرتغاليين ، ورغم حركات القمع العنيفة التى
مارسها البرتغاليون ضد المسلمين إلا أنهم لم يركنوا إلى اليأس
والاستسلام ، وتطلعوا إلى الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية آنذاك
، وتدخل العثمانيون عسكريا ضد البرتغاليين فالمصالح التجارية
الإسلامية واحدة ومشتركة ، ورغم أن الحملات العثمانية فى الخليج لم
تحقق انتصارات قوية حاسمة ضد البرتغاليين ، إلا أنها أضعفت من
نفوذهم وشتتت قواهم .

(١) المرجع السابق .

Sousa : Op. Cit. Vol. I P. 141 .

(٢)

ومما يوضح الدوافع الإقتصادية الإستعمارية للكشوف الجغرافية ما جرى بعد ذلك من تنافس حاد بين القوى الأوربية للسيطرة على الخليج وتجارة الشرق الأقصى وذلك بظهور الهولنديين ثم شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي تأسست سنة ١٦٠٠م ودخولهما مع البرتغاليين فى حروب ومنازعات للسيطرة على الخليج^(١) والطرق التجارية إلى الشرق .

هكذا نجحت حركة الكشوف الجغرافية فى تحقيق ما فشلت فيه الحركة الصليبية ، فقد وجه البرتغاليون ضربة قوية لمنطقة الشرق الإسلامى ، وتمكنوا من الالتفاف حول العالم الإسلامى من جهة الجنوب ، واستطاعوا القضاء على المصالح التجارية الإسلامية وانتزعوا السيادة على التجارة العالمية بسيطرتهم على السلع الشرقية وطرق الملاحة ، فاحتكروا ذلك كله مما أدى إلى انهيار الاقتصاد الإسلامى وصارت منطقة الخليج منطقة صراع ضد الإسلام والمسلمين ، ثم كان الإستعمار الأوربى للمنطقة .

وهكذا كانت حركة الكشوف الجغرافية حلقة فى سلسلة الصراع الصليبي بين الشرق العربى الإسلامى وأوربا ، ففشل الحركة الصليبية كان دافعا لحركة الكشوف الجغرافية فهى بذلك متممة لها .

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٣٠ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : على بن أحمد بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م .
- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل . نشره
 وحققه عبد القادر أحمد طليمات .
- الكامل فى التاريخ . الطبعة الثالثة .
 أحمد دراج : الدكتور
 - المماليك والفرنج .
 آدم ميتز :
- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة
 عبد الهادى أبو ريده .
 إرنست باركر :
- الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز
 العربى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .
 أرنولد : سيرتوماس و .
- الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن
 وآخرين . مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .
 ابن إياس : محمد بن أحمد . ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م .
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى
 القاهرة ١٩٦١ .
 الإصطخرى : إبراهيم بن محمد الفارسى ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م .
- المسالك والممالك . تحقيق محمد عبد العال الحينى .
 القاهرة ١٩٦١ .
Ostrogorsky:History of the Byzantine State Tr., by J. Hussey.
Oxford. 1956 .

Baldwin : Medieval Church. New York 1960 .

Pirenne : Economic and Social History of Medieval Europe.

Tr. by I.E. Clegg London 1961 .

بانيكار :

- آسيا والسيطرة الغربية . ترجمة عبد العزيز توفيق

جاويد . القاهرة ١٩٦٢ .

البحراوى : الدكتور محمد عبد اللطيف .

- فتح العثمانيين عدن . القاهرة ١٩٧٩ .

الأسفار . بيروت ١٩٦٤ .

The Cambridge History of Africa. Vol. 3 London 1977.

The Cambridge History of Islam. Vol. 1 London 1970.

Thompson : Economic and Social History of Islam London

1959 .

جوزيف نسيم : الدكتور

- العرب والروم واللاتين الاسكندرية ١٩٨٣ .

جورج حورانى : فضلوا

- العرب والملاحة فى المحيط الهندى . ترجمة يعقوب بكر

القاهرة ١٩٥٨ .

Grousset, R: The Sum of History. English version by

A.H.Temple Patterson. Oxford, 1951 .

الحميرى : محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م .

- الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس
بيروت ١٩٧٥ .

ابن الديبع : أبى الضياء عبد الرحمن بن على ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م

- قرّة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن على
الأكوع ج ٢ القاهرة ١٩٧٦ م .

ريمونداچيل : شاهد عيان للحملة الصليبية الاولى .

- تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس .

- نقله إلى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش جون هيوم هيل ولوريتا
ل هيل جامعة هيوستن . نقله إلى العربية ، د. حسين محمد
عطية طبعة ١٩٨٩ اسكندرية .

Runciman , Steven : A History of the Cambridge, 1954-55.

The First Crusaders Journey across The
Balkan Peninsula. B. 18 1948. P.P. 207 - 221.

زيادة : الدكتور محمد مصطفى

- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة القاهرة
١٩٦١ م .

زين الدين : ت (ق ١٠ هـ)

- تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين . لشبونة ١٨٩٨ م

سعيد عاشور : الدكتور

- الحركة الصليبية القاهرة ١٩٧٦ الطبعة الثالثة .

السيد رجب حراز : الدكتور

- الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . القاهرة ١٩٧٠ .

- عصر النهضة ، القاهرة ١٩٧٤ .

Sousa :The History of the Discovery and Conquest of India by
the Portugese .

Setton, K.M. : A History of the Crusades . pensylvania, 1958 .

Stevenson. W.B. : The Crusades in the East. Cambridge. 1907 .

شيني :

- تاريخ العالم العربى . ترجمة مجد الدين حفى ناصف .
القاهرة .

Show, Stanford : History of the Ottoman Empire
and Modern Turkey New York 1976 .

صلاح العقاد : الدكتور

- التيارات السياسية فى الخليج العربى . القاهرة ١٩٧٤ .

عنان : محمد عبد الله

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين . القاهرة ١٩٦٦ .

عبد العزيز الشناوى : الدكتور

- أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . القاهرة ١٩٧٧ .

عبد المجيد عابدين :

- الحبشة والعرب . القاهرة .

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م .

- شذرات الذهب من أخبار من ذهب . القاهرة ١٩٣٣ .

فشر :

- أوروبا العصور الوسطى . ترجمة د. محمد مصطفى زيادة
وأخرين ، القاهرة ١٩٥٤ .

ماجد : الدكتور عبد المنعم .

- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ١٩٦٦
بيروت .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور

- مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٦٠ .

Milles. S.B.: The Contries and Tribes of the persian Gulf.
London 1966 .

المقدسى : محمد بن أحمد ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥ م .

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن، ١٩٠٦ .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ

- السلوك لمعرفة دول الملوك . القاهرة ١٩٥٨ م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق ١٢٧٠ هـ .

النهرولى : قطب الدين محمد بن أحمد ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م .

- البرق اليمانى فى الفتح العثمانى . تحقيق حمد الجاسر
الرياض ١٩٦٧ م .

وليم الصورى : وهو شاهد عيان للحملة الصليبية الاولى .

-الحروب الصليبية . ج١-

ترجمة د. حسن حبشى . طبعة ١٩٩١ الهيئة العامة للكتاب
سلسلة تاريخ المصريين (٤٥) .

يسرى الجوهري :

- الكشوف الجغرافية. اسكندرية ١٩٦٧ .

يحيى بن سعيد الأنطاكى :

- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت ١٩٠٩ .